المراوحة القاتلة

هل تنتهي لعبة الموت في لبنان بانتصار فريق على الآخر ؟
كيف يكون الانتصار ، أبالنقاط أم بالضربة القاضية ؟
لقد علّمتنا تجارب المحنة عبر اثنتي عشر سنة أن الانتصار بالضربة القاضية ، أي عن طريق الحسم العسكري بالتعبير المألوف ، أمر غير وارد ، فهو غير متاح وغير ممكن ، وهو أيضاً غير مستحب في منطق الحرص على وحدة الوطن أللهم إلا على يد الشرعية إذا كانت عادلة . فليس بين اللبنانيين من لا يريد أن تكون الشرعية قادرة شرط أن تكون عادلة . والشرعية القادرة والعادلة يجب أن تكون أول ثمرة للوفاق بين اللبنانيين يوم يتم مثل هذا الوفاق .

علمتنا تجارب الأزمة القاسية أن الحسم عسكرياً غير وارد . فقد يربح فريق على فريق في معركة أو في منطقة ، وقد يستقوي طرف على الآخر حتى بعدو لبنان والعرب ، ولكن أحداً لا ينتصر في النتيجة على الآخر ، وتبقى الحرب سجالاً . ذلك لأن الحرب اللبنانية تدور ، على ما يبدو ، في إطار شبكة من الخطوط الحمر الأقليمية والدولية التي قد تسمح في لحظة من اللحظات برجحان كفة على أخرى ولكنها لا تسمح ، أو هي على الأقل لم تسمح حتى الآن ، بحسم الموقف على مستوى المصير في مصلحة فريق على حساب الآخر .

ولكم رجحت كفة على كفة بالنقاط على غير نهاية للحرب . أي أن الانتصار النهائي لفريق على آخر حتى بالنقاط ليس وارداً ، أو هو غير وارد حتى الآن . هذا فضلاً عن أن حكَم المباراة في لعبة الموت الجهنمية هذه قد توقف عن تسجيل النقاط منذ مدة غير وجيزة منذ انفجار الأحداث .

لعله سئم ترّهاتنا وأوهامنا ، أو لعله تعب من متاعبنا وهمومنا ، أو لعله كفر بمنطلقاتنا وأهدافنا ، أو لعل غبارنا حجبت رؤيته ، أو لعل دخاننا خنق متنفسه ، أو لعل رمادنا أعمى عينيه ، أو أنه ربما أدرك أن لا علاقة بين النقاط المسجلة ونتيجة المعركة بمعنى أن أحد الأطراف قد يستطيع أن يكسب كل النقاط ولا يربح الحرب . أو ربما حار في أمرنا فنفض يده منا إذ وجد أن معركة ما يمكن أن تنتهي بانتصار الفريقين معاً ، هذا إذا كان لنا أن نصدق كل فريق في ما يسجل من النقاط على الآخر . فما الجدوى من جمع النقاط وإعلانها إذا كانت المعركة دائرة بين المتقاتلين فيما النقاط كلها تقتصّ من المسالمين الآمنين من جميع الفئات .

توقف حكَم المباراة الهمجية عن تسجيل النقاط ، فلم نعد نعرف عدد القتلى والجرحى الذين يسقطون كل يوم .

لم يعد هناك من يحصي عدد الضحايا .

لم يعد هناك من يستطيع أن يضبط عدد المهجرين .

لم يعد هناك من يعنى بمعرفة عدد العاطلين عن العمل ، أو عدد المشردين بلا مساكن ، أو عدد الأطفال خارج المدارس .

لم يعد هناك من يلتفت إلى حجم الخسائر المادية فيقول لنا وللعالم المتفرّج كم من المباني يتهدم وكم من الموجودات يحترق وكم من الثروة يتبدد .

وبين أعظم الخسائر فداحة ما لا يقاس بعدد أو بقيمة ، فكيف تُحصى أو تضبط ؟ بأي معيار نقيس نكبة المجتمع في القلوب الكسيرة والمعنويات المحطمة والنفوس المريضة ؟ كيف يمكن تقويم الطاقات المعطلة والقدرات المهدورة والعقول المخنوقة ؟ بأي ميزان نزين ما يتبدد من القيم الأخلاقية والإنسانية والإجتماعية والوطنية ؟ ثم إن هذه الأضرار ، بقدر ما كانت فادحة كانت شاملة ، حتى لا نقول عادلة . ضربت المجتمع من غير تمييز ولا تفريق بين الجماعات . فكما الجراثيم والأوبئة لا تعترف بالحدود بين البلدان ، كذلك الكوارث المعنوية والمجتمعية والنفسية ، فهي لا تقتصر على منطقة من دون الأخرى ولا تنحصر في جماعة من دون سواها .

توقف الحكَم في اللعبة الهمجية عن تسجيل النقاط . لكم صُمّت الآذان بدويّ المدافع الميدانية والقذائف الصاروخية وصخب الأسلحة الأوتوماتيكية ، فلم يعد أحد يسأل عن الخبر ، لأن الجواب أضحى معروفاً مألوفاً : فالحادث عادة اشتباك على خطوط التماس وسط العاصمة الحضارية . وما جدوى تقصّي خبر اليوم إذا كنا نعلم سلفاً أنه سيكون اجتراراً لخبر الأمس . إنك لن تجد في الخبر سوى أنها اشتباكات وقعت عند نقطة معينة من خطوط الاقتتال العبثي الطويل ، ربما بدأت برصاصة قنص ، أو ربما برصاصة طائشة ، ثم احتدمت بكل الأسلحة الخفيفة والمتوسطة والثقيلة ، وما لبثت ، إثر اتصالات ومشاورات بين أهل الحول والطول ، أن تراجعت أو توقفت وإنما بقي جو الهدوء الحذر سائداً . ولا نعود بعدها نسأل علامَ انتهى جو الهدوء الحذر ، سواء زال الهدوء فتجددت الاشتباكات أم زال الحذر فتثبت الهدوء ؟ والأمر في أي حال يكون إلى حين ، أي إلى أن يدهمنا حادث جديد ويأتينا خبر جديد .

هكذا تحولت عبثية القتال مراوحة لا بل رتابة قاتلة . نتقبله تقبل القدر المحتوم . نستقبله مثلما نستقبل تعاقب الفصول . نتحمله صابرين كما نتحمل حر الصيف وقرّ الشتاء . لم نعد نعرف ، ولا يهمنا أن نعرف ، كيف بدأت المعركة أو كيف انتهت . البداية تكاد تكون دوماً سخيفة والنهاية عقيمة .

توقف الحكم عن تسجيل النقاط . فأضحت لعبة الموت البربرية بلا حكم . تماماً كما الغاب . السبع يفترس الأرنب ، والذئب يلتهم الحمل ، والفيل يدوس النملة ، وليس من يحصي أو يسأل . كلانا في غابة

نقيم . هم في غابة خضراء ونحن في غابة سوداء . غابتهم من الأعشاب والأشجار وغابتنا من الحديد والنار . لهم وحوشهم ولنا وحوشنا . مع ذلك فنحن نحسد الغاب على شريعته . في غابهم يقتل القوي الضعيف إما بدافع العداوة الغريزية أو لإشباع نهمه . فلا قنص لبريء من أجل إقفال طريق ، ولا قصف عشوائياً للقتل الجماعي بلا تمييز ، ولا خطف على الهوية أو لمجرد الأذية . . . لا ولا نفاق ولا رياء باسم الشطارة أو السياسة ، ولا شعارات تبطن غير ما تعلن .

ليلنا طال . تالله طال . حربنا سفحت من أعمارنا اثنتي عشرة سنة حتى الآن ، والحبل على الجرار . طوت الحرب العبثية سحابة من أعمارنا وعمر وطننا الصغير توازي ضعفي امتداد الحرب العالمية الثانية وثلاثة أضعاف امتداد العالمية الأولى ، وقضت حتى الآن على ما يوازي خمسة بالمائة من مجموع شعبنا تقريباً . نقول تقريباً لأن أحداً كما قلنا لم يعد يحصي موتانا . وما همّ العالم المتفرج أن يكون العدد الصحيح ثلاثين ألف إنسان أكثر أو أقل . حسب العالم أن تكون جموع شعبنا قد دفنت ومعها صورة الوداعة التي كان ينطبع بها هذا الشعب . واليوم إذا ذكر لبنان في أروقة الغرب ومحافله ومنتدياته ذكر معه الإرهاب ، في أكثر الحالات زوراً أو بهتاناً ، جوراً وتجنياً .

أولئك الذين يصوّرون لبنان وكأنما هو بؤرة للإرهاب ، لا يهمهم من الإرهاب إلا ما يتوهمون ويوهمون أن لبنان يصدّره إلى الخارج تحت دمغة الإرهاب الدولي . حبذا لو يصدّق هؤلاء أنفسهم والناس فيعترفوا لمرة واحدة أن الأسلحة والذخائر التي يستخدمها الإرهابيون على المسرح الدولي كلها من صنع بلادهم ، كلها من صنع أميركا وروسيا وبريطانيا وفرنسا أو الدول التي تدور في أفلاكها . وليس من تلك الأسلحة قطعة واحدة مصنوعة في بلدنا المسكين لبنان . حبذا لو يعترفون لمرة واحدة أن لبنان ، قبل أن يكون بؤرة للإرهاب كما يزعمون أو يريدون أن يصوروا ، كان بمن فيه ضحية الإرهاب ، وليعذرونا إذا سميناها إرهاباً شرعياً إذا جاز أن يكون للإرهاب شرعية ، أو فليعلمونا عن النعت الذي يمكن أن يوصف به إرهاب القنابل الانشطارية والعنقودية والفوسفورية ، وإرهاب المدافع الجبارة من أعظم البوارج الحربية وإرهاب أحدث الطائرات والدبابات والأجهزة الإلكترونية .

يقال إننا شعب صامد . هذا صحيح . بقي منا صامداً على أرضه من لم يمت برصاصة عمياء أو شظية طائشة . كل منا وأي منا معرض للموت صدفة في كل لحظة ما دامت الحرب العبثية مستمرة . نحن قوم لم نمت صدفة ، إذن فنحن نعيش صدفة .

أخطأ المتآمرون علينا عندما أمعنوا وافرطوا وأسرفوا في كيدهم لنا ، فلم يعد المزيد يؤثر فينا . أكثر أعداؤنا من القتل والتهجير والتخريب بيننا فلم يعد ثمة زيادة لمستزيد . أمست النصال تتكسر على النصال في أجسامنا . فهل من عجب إذا وجدونا صامدين . أجل ، نحن صامدون صمود الصخرة العارية في وجه العواصف العاتية . بالله عليكم ، كيف يمكن أن تنال العواصف من صخرة عارية ؟

يسائلنا عذّالنا ، وما أكثر من غسل يديه من دمنا بعذله : لماذا لا تتفقون أنتم اللبنانيين فيما بينكم فترتاحون وتريحون ؟ لماذا تشكون من المراوحة القاتلة والمراوحة كلها بينكم ؟

من واكب المحنة اللبنانية في مسبباتها وتطوراتها وتشعباتها وتشابكاتها ، في وجوهها الداخلية والإقليمية

نقيم . هم في غابة خضراء ونحن في غابة سوداء . غابتهم من الأعشاب والأشجار وغابتنا من الحديد والنار . لهم وحوشهم ولنا وحوشنا . مع ذلك فنحن نحسد الغاب على شريعته . في غابهم يقتل القوي الضعيف إما بدافع العداوة الغريزية أو لإشباع نهمه . فلا قنص لبريء من أجل إقفال طريق ، ولا قصف عشوائياً للقتل الجماعي بلا تمييز ، ولا خطف على الهوية أو لمجرد الأذية . . . لا ولا نفاق ولا رياء باسم الشطارة أو السياسة ، ولا شعارات تبطن غير ما تعلن .

ليلنا طال . تالله طال . حربنا سفحت من أعمارنا اثنتي عشرة سنة حتى الآن ، والحبل على الجرار . طوت الحرب العبثية سحابة من أعمارنا وعمر وطننا الصغير توازي ضعفي امتداد الحرب العالمية الثانية وثلاثة أضعاف امتداد العالمية الأولى ، وقضت حتى الآن على ما يوازي خمسة بالمائة من مجموع شعبنا تقريباً . نقول تقريباً لأن أحداً كما قلنا لم يعد يحصي موتانا . وما همّ العالم المتفرج أن يكون العدد الصحيح ثلاثين ألف إنسان أكثر أو أقل . حسب العالم أن تكون جموع شعبنا قد دفنت ومعها صورة الوداعة التي كان ينطبع بها هذا الشعب . واليوم إذا ذكر لبنان في أروقة الغرب ومحافله ومنتدياته ذكر معه الإرهاب ، في أكثر الحالات زوراً أو بهتاناً ، جوراً وتجنياً .

أولئك الذين يصوّرون لبنان وكأنما هو بؤرة للإرهاب ، لا يهمهم من الإرهاب إلا ما يتوهمون ويوهمون أن لبنان يصدّره إلى الخارج تحت دمغة الإرهاب الدولي . حبذا لو يصدّق هؤلاء أنفسهم والناس فيعترفوا لمرة واحدة أن الأسلحة والذخائر التي يستخدمها الإرهابيون على المسرح الدولي كلها من صنع بلادهم ، كلها من صنع أميركا وروسيا وبريطانيا وفرنسا أو الدول التي تدور في أفلاكها . وليس من تلك الأسلحة قطعة واحدة مصنوعة في بلدنا المسكين لبنان . حبذا لو يعترفون لمرة واحدة أن لبنان ، قبل أن يكون بؤرة للإرهاب كما يزعمون أو يريدون أن يصوروا ، كان بمن فيه ضحية الإرهاب ، وليعذرونا إذا سميناها إرهاباً شرعياً إذا جاز أن يكون للإرهاب شرعية ، أو فليعلمونا عن النعت الذي يمكن أن يوصف به إرهاب القنابل الانشطارية والعنقودية والفوسفورية ، وإرهاب المدافع الجبارة من أعظم البوارج الحربية وإرهاب أحدث الطائرات والدبابات والأجهزة الإلكترونية .

يقال إننا شعب صامد . هذا صحيح . بقي منا صامداً على أرضه من لم يمت برصاصة عمياء أو شظية طائشة . كل منا وأي منا معرض للموت صدفة في كل لحظة ما دامت الحرب العبثية مستمرة . نحن قوم لم نمت صدفة ، إذن فنحن نعيش صدفة .

أخطأ المتآمرون علينا عندما أمعنوا وافرطوا وأسرفوا في كيدهم لنا ، فلم يعد المزيد يؤثر فينا . أكثر أعداؤنا من القتل والتهجير والتخريب بيننا فلم يعد ثمة زيادة لمستزيد . أمست النصال تتكسر على النصال في أجسامنا . فهل من عجب إذا وجدونا صامدين . أجل ، نحن صامدون صمود الصخرة العارية في وجه العواصف العاتية . بالله عليكم ، كيف يمكن أن تنال العواصف من صخرة عارية ؟

يسائلنا عذّالنا ، وما أكثر من غسل يديه من دمنا بعذله : لماذا لا تتفقون أنتم اللبنانيين فيما بينكم فترتاحون وتريحون ؟ لماذا تشكون من المراوحة القاتلة والمراوحة كلها بينكم ؟

من واكب المحنة اللبنانية في مسبباتها وتطوراتها وتشعباتها وتشابكاتها ، في وجوهها الداخلية والإقليمية

والدولية ، يعرف تمام المعرفة إن السؤال أبسط من الجواب ، لأن الجواب يطوي في ثناياه كل تعقيدات القضية اللبنانية وتداخلها مع قضايا كثيرة هي أكبر من لبنان وأهله من حيث الأبعاد والملابسات في مقياس الشجون الإقليمية والدولية . نقول هذا من غير أن نغفل أن الصراع في لبنان في جوهره الداخلي هو صراع حول التغيير . وحرب التغيير هي بطبيعتها حرب غير متكافئة .

أجل ، إن حرب لبنان في وجهها الداخلي البحت هي حرب تغيير بين مدافع عن مواقعه ومهاجم لها . ولقد تعلمنا من العسكريين المحترفين في ما تعلمنا خلال الحرب اللبنانية أن القوة المهاجمة لموقع عسكري محصّن لن تتمكن منه عسكريا إذا لم تكن تلك القوة متفوقة على القوة المدافعة عدداً وعدة بما لا يقل عن نسبة الثلاثة إلى واحد . أما إذا تساوت أو تقاربت القوتان فيبقى المدافع حيث يقبع وينكفىء المهاجم إلى حيث انطلق . وفي ذلك انتصار للدفاع وفشل للهجوم .

أزمة لبنان في وجهها الداخلي هي بمثابة حرب ، أحياناً ساخنة وأحياناً باردة ، بين طلاب التغيير والاصلاح في النظام السياسي والمتمسكين بواقعه الرديء وبمواقعهم فيه . فإذا تساوت القوى أو تقاربت بين المهاجم والمدافع ، حتى في المعنى السياسي للكلمة ، كانت المراوحة . أما إذا اختلّ التوازن في القوى بينهما ، كان انكشاف الداخل اللبناني على الخارج باباً تلج منه القوى الإقليمية والدولية لتأخذ بناصر الضعيف وتصحح الخلل الطارىء وتعيد لبنان واللبنانيين من ثم إلى حال . . . المراوحة .

وإذا كانت المراوحة قد غدت قاتلة ، فهي كذلك داخل لبنان وليس خارجه . برغم كل ما يقال عن الإرهاب الدولي وعلاقة لبنان المزعومة أو الموهومة به . فلماذا ينزعج المتفرجون أو المتآمرون .

إن اللبنانيين ، بقدر ما هم ضحية للعنف والإرهاب داخل بلدهم ، فهم ضد كل أعمال العنف والإرهاب خارجه شكلاً ومضموناً ، اللهم إلا فيما يتعلق بعدو يحتل أرضهم ويسلبهم حقهم . ولكن اللبنانيين يشعرون أن هناك ما هو أسوأ من الإرهاب الدولي .

أسوأ من الإرهاب الدولي هي حالهم ، حال اللبنانيين ، في ظل عدم اكتراث العالم المتحضر لهم وتحميلهم وزر الخطايا التي يرتكبها المتحكمون بالواقع الدولي وما تسببه سياساتهم الخرقاء من كوارث في العالم يعاني من آثارها الصغار قبل الكبار .

بيروت في ١٤/١٠/١٩٨٦